في ذكرى جلال الدين الرومي

العالم يحيا بالحب الصوفي

استمع للناي كيف يقصُّ حكايتَه. إنه يشكو آلام الفراق، يقول:
إنّي مذ قُطعْتُ من منبت الغاب والناس، رجالاً ونساء، يبكون لبكائي.
إنني أنَشد صدرًا مزَّقه الفراق، حتى أشرح له ألم الاشتياق.
فكلُّ إنسان أقام بعيدًا عن أصله يظلُّ يبحث عن زمان وَصْله.

ثمانية قرون بيننا وبين جلال الدين الرومي ثمانية قرون يتواصل فيها الوجد البشري في غناء ومحبة لا تنتهيان فهما خارج حدود الزمان والمكان، وجلال الدين الرومي حاضر بوصفه ذلك الناظِر إلى جوهر القلوب العاشقة غير أن الرغبة الجامحة، بدل أن تخبو شعلتها، تحولت مع الأيام إلى هاجس ملحاح. فإذا ما امتلأت بروح الرومي وعذابه العاشق وعبقريته التي لا يجود بها الزمان كل حين. امتدت تجربته وروحه لتنتشران في افاق الكون ترنما بالحب حد البكاء خشوعا وعرفانا بالجميل لمن يتنقل بالقلوب التائهة في مدارجها والى هذا القرن تتواصل افاق هذه التجربة الروحية عبر مدارات مولويته، لنكبر الله ونمجد عَظمته.

حياة العارف جلال الدين الرومي

الرومي من الطفولة إلى لقاء شمس:
عاش الشاعرالفارسي جلال الدين الرومي طفولته في جو تاريخي مؤلم (ولد ٦٠٣هجرية، ١٢٠٧م)، إذ بسبب الاجتياح المغولي لمنطقة (بلخ) التي تدعى اليوم افغانستان، تركت عائلته موطنها واستقرت في قونية التركية، وأصبح والده بهاء الدين استاذا يدرس في جامعة قونية، تلقى جلال الدين تعليمه الروحي المبكر تحت اشراف والده وبعد ذلك تحت اشراف صديق والده سيد برهان الدين البلخي. واصل مولانا جلال الدين التعلم عن أستاذه سيد برهان الدين إلى جانب مكابدة أربعينيات صارمة من العبادة والصوم، بعد ذلك قضى أكثرمن اربع سنوات في دمشق وغيرها حيث درس مع نخبة من أعظم العقول الفقهية والعلمية في ذلك الوقت، ما مكنه في النهاية من اكتساب تكوين متين في الفقه والتصوف.
لما أدرك سيد برهان انه اكمل مسؤولياته تجاه تلميذه مولانا جلال الدين اراد ان يمضي البقية من عمره في عزلة فأخبر مولانا بذلك، فظهر بعد ذلك شمس الدين التبريزي الحدث المركزي في حياة مولانا، إذ في عمر السابعة والثلاثين التقى مولانا جلال الدين بالدرويش الأمي المتجول شمس الدين التبريزي الملقب بشمس المغربي، فكانت ولادة جديدة له، أنشد بعدها للبشرية أرق وأجمل أناشيد الحب الخالدة.

حب إلاهي وميراث إنساني:
باقتراح من تلميذه حسام الدين شرع مولانا في بداية الخمسينيات من عمره باملاء ديوانه الشعري الصوفي الضخم على هذا التلميذ الذي أخذ على عاتقه مهمة تدوين أكبر ديوان صوفي في التاريخ الانساني، فمضامينه تعكس كل مناحي الشخصية الإنسانية، كما يتميز بالغزارة والتفاصيل الدقيقة في عالم الطبيعة والتاريخ والجغرافيا.
ويتكون هذا العمل الروحي الكبير من ٢٧ ألف بيت من الشعر، يفتتحها بأبيات تحكي شوق الروح الانسانية إلى خالقها، تحت غطاء رمز الناي الذي يئن حنينا إلى منبته

اللقاء بالعطار
تنقل الروايات التي اهتمت بحياة مولانا جلال الدين أنه لما توجه صحبة والده بهاء الدين إلى مكة لأداء فريضة الحج، التقى في نيسابور الشاعر الصوفي المشهور فريد الدين العطار، الذي أهدى إلى جلال الدين الرومي كتابه "أسرار نامة"، وأوصى العطار بهاء الدين بالولد الصغير قائلا:"اعتنِ بهذا الولد، فإنه عما قريب سينفث في هذا العالم نفسا مشتعلا"، ولما كبر الولد جلال الدين الرومي ظل معجباً بالشاعرالصوفي العطار،وكان يردد:"لقد اجتازالعطار مدن الحب السبع بينما لا أزال أنا في الزاوية من ممر ضيق".
عكست أشعار وتعابير مولانا استقلالا واضحا عن المذاهب إذ يقول:"تعالَ وكلمني ولا يهم من أنت ولا إلى أي طريقة تنتمي ولا من هو أستاذك، تعال لنتكلم عن الله"، فالرجل يعتبر نفسه داعيا الخلق بكل أشكالهم إلى الله تعالى، دون اعتبار للحواجز والحدود.
المستشرقون
اهتم المستشرقون كثيرا بآثار مولانا وفتحت في الغرب تخصصات أكاديمية عكفت على دراستها، وقبل سنوات قليلة سجلت مبيعات ترجمة بعض أشعاره أكبر حصة في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعتبر الكثير من الدارسين لديوانه الصوفي الضخم"مثنوي معنوي"أن هذا الأثر هو بحق أثر إنساني بلا منازع، وإبداع عالمي أغمط حق الاعتراف به، وربما يعرف الناس مولانا عن طريق رقصة المولوية، التي ترجع أصولها إلى مابعد وفاة الشاعر مولانا جلال الدين، وأصبحت اليوم رمزا سياحيا أكثر منه أثرا صوفيا ذا جدور عرفانية.
وكانت المولوية تتكفل بتقليد السلطان سيفه عند جلوسه على العرش، كما انتسب اليها الكثير من الأمراء، و ظلت هذه الفرقة محل إجلال و تقدير طيلة العهد العثماني إلى أن ألغاها كمال أتاتورك عام ١٩٢٦، عندها تحوّل مركز المولوية إلى حلب في سوريا.

الوفاة
توفي مولانا جلال الدين الرومي في ٦٧٢ هـ،١٢٧٣م عن عمر بلغ نحو سبعين عامًا، ودُفن في ضريحه المعروف في قونية بتركيا وقد كتب على الضريح بيت من الشعر يخاطب به مولانا جلال الدين زواره قائلا:

يا من تبحث عن مرقدنا بعد شدِّ الرحال
قبرنا يا هذا في صدور العارفين من الرجال

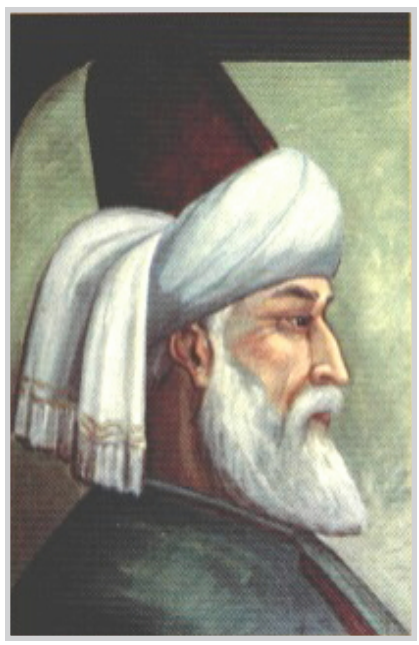

ما أسعد تلك اللحظة حين نجلس في الإيوان، أنا وأنت!
نبدو نقشين وصورتين، ولكننا روح واحدة، أنا وأنت!
إن لون البستان وشدو الطيور يهَبُنا ماءَ الحياة
في تلك اللحظة التي نذهب فيها إلى البستان، أنا وأنت!
وتقبل نجوم الفلك راثيةً إلينا بأبصارها
فنجلو القمرَ نفسه لتلك الأفلاك، أنا وأنت!
أنا وأنت، من دون أنا وأنت، نبلغ بالذوق غاية الاتحاد
فنسعد ونستريح من خرافات الفرقة إلا أنا وأنت!
وسيأكل الحسد قلوب طيور الفلك ذات الألوان الباهرة
حينما تشاهدنا نضحك جذلَين على تلك الصورة، أنا وأنت!

الأنين الذي يبقى..

مولانا جلال الدين الرومي وشمس تبريز

إيراج بشيري
ترجمة: محمد المبارك

ولد مولانا جلال الدين البلخي (الرومي)، الذي يعرف في الغرب بـ"رومي" Rumi وفي إيران بـ"مولوي"، لعائلة مشهورة بالعلم في بلخ، الواقعة في أفغانستان الحالية، في العشرين من أيلول عام ١٢٠٧م (٦٠٤ هجرية). وكانت مدينة بلخ من إحد مراكز التصوف في ذلك الوقت، وكان "بهاء الدين ولد"، والد جلال الدين، أحد علمائها البارزين وصوفياً يحظى باحترام وتقدير الحاكم (خوارزم شاه علاء الدين محمد). وقد أنجبت عائلة "بهاء الدين ولد" عدداً من العلماء الأكفاء في حقول التصوف والمباحث العقلية.

الميلاد
ولد جلال الدين بعد زهاء سبع سنوات من مولد (مصلح الدين سعدي)، وترعرع في بلخ تحت رعاية أبيه. وفي سنة ١٢١٩م أو١٢٢٠م، ترك والد جلال الدين مدينة "بلخ" متجهاً نحو نيسابور حيث يقال إن الصبي جلال الدين التقى فيها بـ(فريد الدين العطار) الذي أهداه نسخة من منظومته "أسرار نامة" (كتاب الأسرار). ويقال أيضاً إن الشيخ العطار أخبر والد جمال الدين أن ابنه سيصبح علماً مشهوراً. ومن نيسابور، ارتحلت الأسرة مرة أخرى إلى "بغداد" و"مكة" و"دمشق". ولم يرتض (بهاء الدين بلد) أياً من هذه المدن سكناً له ولعائلته. وفي النهاية استقر في مدينة "لارنده"، الواقعة جنوبي شرق مدينة "قونية"، في تركيا الحالية، حيث تزوج جمال الدين من جواهر خاتون (السمرقندية). وقد احتل المغول بعد ذلك بفترة قصيرة مدينة بلخ. وفي عام ١٢٢٦م، أنجبت خاتون الولد البكر لجمال الدين.
وقد اجتذب بهاء الدين، وهو العالم والصوفي المعتبر، عدداً لا بأس به من التلاميذ والأتباع بصفته معلماً وعالماً روحياً. وفي عام ١٢٢٨م، انتقل نهائياً إلى قونية، عاصمة السلاجقة حكام أرض الروم، تاركاً جلال الدين وعائلته في "لارنده". وتوفي بعد سنتين في قونية في عام ١٢٣٠م.

الدرس والتحول
عند وفاة والده، لم يكن الرومي قد اكتسب بعد الاهتمام الكبير بالتصوف الذي أبداه في سنوات تالية. ولم يكن بالتالي مؤهلاً بعد لاحتلال موقع والده الرفيع قبل أن ينكب بنفسه على الدرس والبحث واكتساب الخبرة والتدريس، وهي الأعمال التي امتاز بها والده. وكانت تلك هي بداية رحلة الرومي لكي يصبح صوفياً حقيقياً. وفي عقد من الزمن، استطاع أن يشحذ معارفه التي أخذها عن والده وذلك بدخوله في مباحثات مطولة في المعارف الصوفية مع أحد تلامذة والده، هو (برهان الدين محقق)(٥). إضافة إلى ذلك، فقد سافر إلى حلب ودمشق، حيث التقى بصوفيين آخرين، وأطلق العنان لتجاربه الخاصه. وحين حل عام ١٢٤٠م كان قد اكتسب الثقة الكاملة لتسلم مهنة أبيه في التدريس والوعظ في قونية.
وبين عامي ١٢٤٠ و١٢٤٤م، وحين أصبح للرومي أتباع كثر في تلك النواحي، التقى (شمس الدين محمد تبريزي). وحتى ذلك الحين، كانت حياته روتينية في الغالب، حيث كان يمضي أوقاته ما بين التدريس والوعظ والتأمل. ولم يكن يبدو أنه يحمل ميولاً لاتجاه معين. ولكن الفتى الشيخ ذا الأربع والثلاثين سنة أولع بمعلمه بشمس تبريزي حالما التقاه، وترجم هذا الولع بتسمية ديوانه الأول "شمس تبريز".

شمس الدين.. لقاء وافتراق
كان تعلقه بشمس الدين تبريزي، الرجل الذي رأى فيه الصورة الكاملة للمحبوب، شديداً لدرجة أنه أخذ يوقع أشعاره وكتاباته باسم "شمس". وكان هذا دليلاً على أنه لم يكن يرى فرقاً بين نفسه ونفس شمس الدين. وقد احتوى ديوان "شمس تبريز" على ٣٦ ألفاً و٣٤٩ بيتاً، اضافة إلى ١,٩٨٣ رباعية. وقد كان يوقع أشعاره قبل أن يلتقي بشمس الدين باسم (خاموش). وقد وجد الرومي في شمس الدين انعكاساً نقياً لله. وتوطدت العلاقة بين الرومي وشمس الدين حتى ثارت غيرة تلامذة الرومي وأخذوا يهددون شمس في حياته. وفي يوم، اختفى شمس الدين، تاركاً لوعة كبيرة في قلب الرومي، ولم يكن يجدي لدى الرومي شيئاً في هذه اللوعة إلا الشعر، أو بالأحرى كتابة الشعر.
وقد كان هذا الاتصال قصيراً على كل حال حيث اجتمع الرومي وشمس الدين ثانية وبقيا معاً حتى عام ١٢٤٨م. ولكن شمس الدين رحل عن الرومي مرة أخرى، ولم تجد توسلات الرومي ولا رسائله في حمل الرومي على العودة. عندها لم يجد الرومي ملجأ سوى الشعر يخلد به اللحظات العابرة مع شمس الدين. ومع مرور الوقت أخذت ترافق إنشاده أنغام الناي الحزينة، وحركات الرقص الدائرية التي أصبحت أساساً للطريقة الصوفية المسماة بالدراويش الدوّارين ((Whirling Dervishes المتمركزة في قونية، والتي تحيي مولد الرومي كل عام.
بين افتراقه الثاني عن شمس الدين وعام ١٢٥٨م، حول الرومي حبه نحو صائغ ذهب يدعى (صلاح الدين فريدون زركوب). وبعد موت الصائغ، حول تعلقه للمرة الأخيرة لـ(حسام الدين جلبي) الذي توفي عام ١٢٨٤م. وقد أهداه الرومي ديوانه الشهير "مثنوي معنوي" الذي صار يعرف بـ"قرآن الصوفية" (وتدل كلمة "مثنوي" على المعنى الجوهري للأشياء). وقد كرس الرومي باقي عمره بعد ذلك لكتابه المثنوي وساعده حسام الدين في بعض هذا الجهد. ويحتوي كتاب المثنوي على سبعة آلاف مثنوية couplet

شمس تبريز
واضافة إلى "ديوان شمس تبريز" والمثنوي، نظم الرومي ٣,٢٠٠ غزلية (قصيدة غنائية) تحتوي على أكثر من ٣٤ ألفاً وستمئة بيت، مستخدماً مجازات تلمح لله ولانعكاساته في كل الأشياء. ويكثر في صور الرومي وأخيلته استخدام الماء والحيوانات والشمس. ويتكرر اسم الله القدير، والقرآن، والنبي، والأحاديث النبوية. كما يحمل شعره إشارات إلى الشعراء الذين سبقوه.
وقد عاش الرومي حياة حافلة، وتوفي في السابع عشر من كانون الاول عام ١٢٧٣م (٦٧٢ هجرية)، ودفن في قونية قرب والده. وقبره ما زال مزاراً للكثيرين. وتجدر الإشارة إلى أنه بسبب إقامته الطويلة في قونية أصبح يشار إليه عادة باسم "مولانا الرومي". أما بالنسبة للرومي نفسه فإنه كان يعتبر أن موطنه خراسان، برغم أنه من وجهة نظر فلسفية لم يكن يهمه من أين كان هو، فسيان بين مصر أو دمشق أو الهند.

من شمس تبريز

أقبل الربيع، أقبل الربيع، أقبل الربيع حلو العذار
أقبل أوان الشقائق الحمر، طاب العالم وعم الاخضرار

استمع إلى السوسن، أيها الريحان، فللسوسن مئة لسان
انظر وادي الماء والطين، كيف امتلأ بوشي يبهر الأبصار

تسأل الوردةُ زهرةَ النسرين: "كيف كنت في هذه الغربة؟"
تقول: "بخير، إذ الطيبات أتت من تلك الديار"

وزهرة الياسمين تهتف بشجرة السرو: "أوترقصين وأنت سكرى؟"
فيسر السرو في أذنها: "قد أقبل الحبيب البار"

تقدمتْ زهرةُ البنفسج إلى النيلوفر قائلة: "بوركت والله
فقد أقبل العمر الباقي، وولى الجفاف، ثم ولى الاصفرار"

وتلك النرجسة رمقت الوردةَ بنظرة قائلة: "أتضحكين؟"
فهتفت بها: "ما أضحكَ إلا لأن الحبيب بالجوار!"

وقالت شجرة الصنوبر: "تيسَّر السبيلُ الوعرُ بفضل الحقِّ
فكل ورقة بدت في قطع الطريق كسيف بتار"

من تركستان العالم الآخر –منبت الإدراك الملاح–
بأمر المليك، أقبل إلى بلاد الهند الماء ونثرتِ الأزهار

انظر ذلك اللقلق الصداح، قد ارتقى منبراً
هاتفاً: "يا رفاق العمل، الصلا، حان وقت العمل والإكثار"

الاكثر شعبية في الغرب

حب جلال الدين الرومي

جلال الدين الرومي يغزو أميركا بروائعه الأدبية ومترجمه كولمان باركس يزور مسقط رأسه
هو أكثر الشعراء شعبية في الولايات المتحدة. وبرغم أنه لم يكن معروفا فيها قبل عشرة أعوام، إلا أن الإقبال على دراسة أعماله انتشر في كل الجامعات الأميركية. كما تنشر الأبواب الثقافية في الصحف الصادرة في كل المدن الأميركية الكبرى تقريباً مواعيد وأماكن قراءات أشعاره وإلقاء محاضرات عنه وعن أعماله. وأكبر مقياس على مدى شهرته، هو قيام مجموعة من نجوم السينما والمطربين بتسجيل أشعاره.
من هو هذا النجم الأدبي المتلألئ؟ وهل أنجبت الولايات المتحدة شاعراً شهيراً آخر مثل وولت ويتمان يتغنى بقصائد أميركا؟ أم أنه روبرت فروست — الحائز على جائزة بوليتزر أربع مرات – آخر يخاطب أرواحنا؟
في الواقع إن هذا الشاعر ليس أميركيا على الإطلاق. ولا يمكن للأميركيين أن يأملوا في الالتقاء به ورؤيته في إحدى قاعات المحاضرات أو البرامج الحوارية على شاشة التلفزيون؛ فقد رحل هذا الشاعر عن عالمنا منذ أكثر من ٧٠٠ عام. وإذا كان اسمه قد لمع وأصبح معروفاً في الولايات المتحدة منذ فترة قصيرة، فإن الإيرانيين يضعونه في مكان قريب من قلوبهم جميعاً منذ قرون. إنه أحد أعلام الشعر الصوفي في الأدب الفارسي، جلال الدين الرومي المعروف في الولايات المتحدة باسم "رومي".
إن أبعاد الولع بجلال الدين الرومي في الولايات المتحدة إن كانت لم تصل تماماً إلى مرتبة الولع بفريق البيتلز التي كانت سائدة في وقت من الأوقات، فإنه رغم ذلك ولع مثير للدهشة والإعجاب. فخلال السنوات العشر الماضية، حسبما تقول مصادر متعددة، فاقت مبيعات دواوين جلال الدين الرومي مبيعات دواوين أي شاعر آخر في الولايات المتحدة. وبالبحث على شبكة الانترنيت نجد أن كتابة اسم الرومي ينتج عنها ظهور نحو ٨٠٠ ألف موقع ورد اسمه عليها. وتوجد في الأسواق الأميركية الآن، سواء كانت تلك الأسواق في حرم الجامعات أو في محال بيع الكتب أو أماكن أخرى، روزنامات (نتائج حائط) وأكواب قهوة وقمصان أو تي شيرتات عليها صور جلال الدين الرومي.
برغم أن هذه المظاهر لشهرة الرومي في الولايات المتحدة تعتبر مماثلة لمظاهر شهرة أي فنان شعبي أو شخصية ثقافية في الولايات المتحدة، فمن الخطأ الاستهانة بالنجاح الذي تحققه أشعار الرومي في الولايات المتحدة، أو الشك في أن كلماته المستمدة من التقاليد الإسلامية قد لا تتفق مع احتياجات واهتمامات العديد من الأميركيين.
وتقول فيليس تيكيل المحررة بمجلة بابليشار ويكلي، وهي مجلة للإصدارات الأدبية، إن شعبية الرومي "تعود إلى ما نعانيه من ظمأ روحي كبير." وفي حديثه عن الموضوع نفسه، قال الشاعر الأميركي كولمان باركس، الذي كانت ترجماته لأشعار الرومي أكبر عامل أدى إلى شعبيته في الولايات المتحدة، إن طبيعة أفكار المذهب الصوفي التي تغلب على أشعار الرومي وجدت صدى لها بين الأميركيين الذين يسعون إلى هذه الخاصية.
إن التساؤلات التي طرحها الرومي بأسلوب شعري "لا أعلم من أين جاءت، ولا أعرف ما يجب أن أفعل،" تعتبر معبراً عن مشاعر عدد لا يحصى من الأميركيين الذين يتمتعون بحس روحي قوي. وكانت أكثر الشخصيات فاعلية في زيادة الوعي والمعرفة بالرومي، هو المترجم الرئيسي لأعماله الشاعر الأميركي كولمان باركس. ويقول جيمس فاديمان "إن سر شهرة وشعبية الرومي في الولايات المتحدة هو كولمان باركس." وكان نشر كتاب باركس بعنوان الرومي المميز The Essential Rumi في العام ١٩٩٥ هو الشرارة التي أشعلت اهتمام أميركا بشاعر اللغة الفارسية.
وفي لقاء أجري معه في الآونة الأخيرة، أشار باركس إلى أن مهمته لترجمة أعمال الرومي بدأت بطريقة غير معتادة. وقال "لم أكن سمعت به من قبل قط" قبل أن يقدم إليه الشاعر الأميركي المعروف روبرت بلاي أحد دواوين الرومي في ١٩٧٩، وكان مكتوبا بأسلوب أكاديمي رديء، وكان هو الترجمة الانجليزية الوحيدة لأشعار الرومي في ذلك الوقت، فقال الشاعر بلاي لباركس حينئذ "إن تلك الأشعار تحتاج لمن يفك عقالها ويخرجها من القفص المحبوسة فيه."وسرعان ما شرع باركس في العمل. وحسبما قال، "لقد صغت أشعاره كشعر حر أو مرسل باللغة الانجليزية الحديثة." معرباً عن اعتقاده بأن تلك الصياغة "هي أقوى ما لدينا من تقاليد وأعراف شعرية." وقال باركس إنه برغم أن هذا الأسلوب للترجمة لم يكن مألوفاً، فإنه اجتهد بشدة "لكي يظل دقيقاً ومتفقاً مع ما رسمه الرومي من صور شعرية، وآمل أن يكون أيضاً متفقاً مع روحه." ثم أضاف "هناك موسيقى شعرية كثيفة في مؤلفات الرومي، لكنني لا أستطيع نقلها أو ترجمتها. إنني أنصت إلى ما ينبض بين أبيات شعره من مشاعر وعواطف، وأحاول أن أحذو حذوها لكي أستخرجها،" وأجعلها تنطلق مغردة وباهرة.
وبكثير من الحماس يتحدث باركس، وهو شاعر وأستاذ سابق للأدب، عن أعمال شاعر القرن الـ١٣ العظيم. فيقول "إن هذا الشعر كتبه جزء مختلف من النفس البشرية. ولا أعني الشخصية، لكنه شيء آخر مبهم يتجاوزها.
ولا يغفل باركس احتمال أن تقرب أعمال الرومي بين الأميركيين والمسلمين، فيقول "إن الأميركيين لا يرون أشياء كثيرة في العالم الإسلامي. ومن بين تلك الأشياء جلال الدين الرومي. إننا لا ندرك تماماً ما في أعماله من جمال." وأعرب عن أمله في أن تسهم تلك الترجمات في تيسير الفهم وأن "تصبح بوابة يمكن أن تدخل منها أشعار الرومي". ويرى باركس أن نفحات قصائد الرومي تحمل في ثناياها جوهر الرسالة الإسلامية، ألا وهي التسليم بقضاء الله عز وجل.